﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى خلق الكون وفيه أجناس ، وكل جنس يشمل أنواعاً أو نوعين ، وتحت كل نوع أفراد . فإذا ما رأيت جنساً من الأجناس انقسم إلى نوعين ، فاعلم أنهما يشتركان فى مطلوب الجنس ، ثم يختلفان فى مطلوب النوع ، ولو كانا متحدين لما انقسما إلى نوعين . كذلك فى الأفراد . وإذا نظرنا إلى الجماد وجدنا الجماد جنسا عاما ولكنه انقسم إلى عناصر مختلفة ، لكل عنصر من هذه العناصر مهمة مختلفة ، فمثلاً إذا أردنا إقامة بناء ، فهذا البناء يتطلب رملاً ، ويتطلب أسمنتاً ، ويتطلب آجُرّا ، ويتطلب حديداً ، فجنس الجماد كله مشترك فى إقامة البناء ، ولكن للأسمنت مهمة ، وللجبس مهمة ، وللرمل مهمة ، وللمرو ـ وهو الزلط ـ مهمة ، فلا تأخذ شيئا فى مهمة شيء آخر . وكذلك انقسم الإنسان إلى نوعين ، إلى ذكورة تتمثل فى الرجال ، وإلى أنوثة تتمثل فى النساء ، وبينهما قدر مشترك يجمعهما كجنس ، ثم بينهما اختلاف باختلاف نوعيهما . فلو أردت أن تضع نوعاً مكان نوع لما استطعت .

إذن فمن العبث أن يخلق الله من جنس نوعين ، ثم تأتى لتقول : إن هذا النوع يجب أن يكون مثل هذا النوع . وأيضاً نعرف ذلك عن الزمن ، فالزمن ظرف للأحداث ، أى أن كل حدث لا بد له من زمن ، لكن لكل زمن حدث يناسبه . فالزمن وهو النهار ظرف للحدث فى زمنه ، والليل أيضاً ظرف للحدث فى زمنه . ولكن الليل حدثه السكون والراحة ، والنهار حدثه الحركة والنشاط . فإن أردت أن تعكس هذا مكان هذا أحلت وجمعت بين المتناقضين .

لقد أوضحنا أن الله يلفتنا إلى شيء قد نختلف فيه بشيء قد اتفقنا عليه ، فيبين

لك : هذا الذى تختلف فيه ردّه إلى المتفق عليه . فالزمن لا خلاف فى أنك تجعل الليل سكناً ولباساً وراحة وهدوءاً ، والنهار للحركة . وكل الناس يصنعون ذلك . فالحق سبحانه وتعالى يوضح : كما جعل الزمن ظرفاً لحركة إلا أن حركة هذا تختلف عن حركة هذا ، وهل معنى ذلك أن الليل والنهار نقيضان أو ضدان أو متكاملان ؟

إنهما متكاملان ؛ لأن راحة الليل إنما جُعلت لتصح حركة النهار . فأنت تنام وترتاح لتستأنف نشاطاً جديداً . إذن فالليل هو الذى يعين النهار على مهمته . . ولو أن إنساناً استيقظ ليلة ثم جاء صباحاً لما استطاع أن يفعل شيئاً . إذن فما الذى أعان حركة النهار ؟ . . إنه سكون الليل ، فالحق سبحانه وتعالى بيّن : أن ذلك أمر متفق عليه بين الناس جميعاً متدينين وغير متدينين . . فإذا اختلفتم فى أن الذكورة والأنوثة يجب أن يتحدا فى العمل والحركة والنوع نقول لكم : لا ، هذا أمر متفق عليه فى الزمن ، فخذوا ما اتفقتم عليه دليلاً على صحة ما اختلفتم فيه . ولذلك ضرب الله المثل فقال :

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ ﴾

(سورة الليل)

فعندما يغشى الليل يأتى السكون . وقال الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ ﴾

(سورة الليل)

وعندما تبزغ الشمس تدب الحركة ، ثم جاء بالشىء المختلف فيه ، فأتبع سبحانه ذلك بقوله :

﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ ﴾

(سورة الليل)

اى أن لكل جنس مهمة . .

وهكذا نعرف أن الإنسان ينقسم إلى نوعين : الذكورة والأنوثة وفيهما عمل مشترك وخاصية مشتركة . وأن كلا منهما إنسان له كرامة الإنسان وله حرية العقيدة فلا يوجد رجل يرغم امرأة على عقيدة ، وضربنا المثل بامرأة نوح وامرأة لوط وامرأة فرعون .

راجع أصله وخرّج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

إذن فالقدر المشترك هو حرية الاعتقاد ، فلا سلطان لنوع على نوع ، وكذلك حرية التعقل فى المهمات ، وعرفنا كيف أن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ أشارت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة الحديبية إشارة أنقذت المسلمين من انقسام فظيع أمام حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعرفنا قصة بلقيس ـ ملكة سبأ ـ التى استطاعت أن تبرم أمراً تخلّى عنه الرجال ، إذن فمن الممكن أن يكون للمرأة تعقل وأن يكون للمرأة فكر ، وحتى قبل أن يوجد الإسلام كانت هناك نساء لهن أصالة الرأى ، وحكمة المشورة فى نوع مهمتها .

فمثلاً يحدثنا التاريخ أن ملك « كِندة » سمع عن جمال امرأة اسمها « أم إياس » بنت عوف بن محل الشيبانى ، فأراد أن يتزوجها ، فدعا امرأة من « كِندة » يقال لها : « عصام » وكانت ذات أدب وبيان وعقل ولسان ، وقال لها : اذهبى حتى تعلمى لى علم ابنة عوف . أى أرسلها خاطبة . فلما ذهبت إلى والدة « أم إياس » واسمها « أمامة بنت الحارث »وأعلمتها بما جاءت له . وأرسلت الأم تستدعى الابنة من خيمتها ، وقالت لها : هذه خالتك جاءت لتنظر إلى بعض شأنك فلا تسترى عنها شيئاً أرادت النظر إليه من وجه وخلق ونَاطِقِيها فيما استنطقتك به . فلما اختلت « عصام » بالبنت فعلت مثل ما أمرتها أمها . وكشفت للخاطبة « عصام » عن كل ما تريد من محاسنها ، فقالت الخاطبة كلمتها المشهورة : « ترك الخداع ما انكشف القناع » ، وصار هذا القول مثلاً ، أى أن القناع عندما يزول يرى الإنسان الحقيقة ، وعادت الخاطبة « عصام » إلى الملك فسألها : ما وراءك يا « عصام » إنه يسأل : أى خبر جئت به من عند « أم إياس » ؟ . فقالت : أبدى المخض عن الزبد . والمخض هو : هزّ الحليب فى القربة ليفصل الزبد عن اللبن . وذلك يعنى أن رحلتها قد جاءت بنتيجة .

فقال لها : أخبرينى .

قالت : أخبرك حقاً وصدقاً . ووصفتها من شعرها إلى قدمها وصفاً أغرى الملك . فأرسل إلى أبيها وخطبها وزفت إليه .

وفى ليلة الزفاف نرى الأم العاقلة توصى ابنتها فى ميدان عملها ، فى ميدان

أمومتها ، فى ميدان أنوثتها . قالت الأم لابنتها : « أى بنية ، إن النصيحة لو تركت لفضل أدب لتركت لذلك منك - أى أنها كأم تثق فى أدب ابنتها ولا تحتاج فى هذا الأمر لنصيحة - ولكنها معونة للغافل وتذكرة للعاقل . إنك غداً ستذهبين إلى بيت لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه . فكونى له أمةً يكن لك عبداً . واحفظى عنى عشر خصال تكن لك ذخراً » .

وانظروا إلى الخصال التى استنبطتها المرأة من ميدان رسالتها ، تستمر كلمات الأم : « أما الأولى والثانية : فالمعاشرة له بالسمع والطاعة والرضا بالقناعة ، وأما الثالثة والرابعة : فالتعهد لموقع عينه وموضع أنفه فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح . والخامسة والسادسة : التفقد لوقت طعامه والهدوء عند منامه فإن تنغيص النوم مغضبة ، وحرارة الجوع ملهبة . أما السابعة والثامنة : فالتدبير لماله والإرعاء على حشمه وعلى عياله . وأما التاسعة والعاشرة : فألا تفشى له سرّاً ولا تعصى له أمراً ؛ فإنك إن أفشيت سرّه لم تأمنى غدره ، وإن عصيت أمره أوغرت صدره ، وإياك بعد ذلك والفرح إن كان ترحاً والحزن إن كان فرحاً » .

فذهبت أم إياس بهذه النصائح إلى زوجها وأنجبت له البنين والبنات وسعدت معه وسعد معها .

تلك نصيحة من أم تدل على منتهى التعقل ، ولكن فى أى شىء ؟ . فى ميدان مهمتها . إذن فالمرأة يمنحها الله ويعطيها أن تتعقل ولها ميدان ولا يأتى هذا التعقل غالباً إلا فى ميدانها . لأن ميدان الرجل له حركة تتطلب الحزم ، وتتطلب الشدة ، والمرأة حركتها تتطلب العطف والحنان ؛ والأمثال فى حياتنا اليومية تؤكد ذلك ، إن الرجل عندما يدخل بيته ويحب أن ينام ، قد يأتى له طفله صارخاً باكياً ، فيثور الأب على زوجته ويسب الولد ويسب أمه ، وقد يقول ألفاظاً مثل : « اكتمى أنفاسه إنى أريد أن أستريح » . وتأخذ الأم طفلها وتذهب تربت على كتفه وتسكته ، ويستجيب لها الطفل ، فهذه مهمة الأم ، ولذلك نجد أن الأحداث التاريخية العصيبة تبرز الرجل فى مكانه والمرأة فى مكانها .

فمثلا : سيدنا إبراهيم عليه السلام أسكن هاجر وابنها إسماعيل بوادٍ غير ذى

زرع ، قالت له : أتتركنا فى مكان ليس فيه حتى الماء ، أهذا نزلته برأيك أم الله أنزلك فيه ؟. قال لها : أنزلنى الله هذا المكان . فقالت له : اذهب كما شئت فإنه لا يضيعنا . هذه المهمة للمرأة . هاجر مع طفل فى مكان ليس فيه مقوم الحياة الأول وهو الماء . فانظروا عطفها وحنانها ، ماذا فعلت ؟ لقد سعت بين الصفا والمروة ، صعدت الجبل إلى أن أنهكت قواها .

إن الذى يذهب إلى الحج أو العمرة ويجرب الأشواط السبعة هذه يعرف أقصى ما يمكن أن تتحمله المرأة فى سبيل ابنها ؛ لأن هذا موقف عطف وحنان ، ابنها يريد أن يشرب . وكأن الله قال لها : إنك قد سعيت ولكنى سأجعل رزقك من حيث لا تحتسبين ، أنت سعيت بين الصفا والمروة ، والماء ينبع تحت قدمى ولدك . إذن فصدقت فى قولها : إنه لا يضيعنا ، ولو أن سعيها جاء بالماء لظننا جميعاً أن السعى هو الذى يأتى بالماء ، ولكن اسع ولا تعتقد فى السعى ، بل اعتقد فى الرزّاق الأعلى ، تلك مسألة ظاهرة فى أمنا هاجر .

وحينما جاء موقف الابتلاء بالذبح ، اختفت هاجر من المسرح ، وجاء دور سيدنا إبراهيم بحزمه وعزمه ونبوته . ورأى فى الرؤيا أنه يذبح ابنه ، أين أمه فى هذا ؟ اختفت من المسرح ؛ لأن هذا موقف لا يتفق مع عواطفها وحنانها . إذن فكل واحد منهما له مهمة . والنجاح يكون على قدر هذه المهمة . ولذلك يقول الحق : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » فساعة ترى جنساً أخذ شيئاً وجنساً آخر أخذ شيئاً ، إياك أن تشغل بالك وتتمنى وتقول : « أريد هذه » ، ولكن اسأل الله من فضله ، لأن كلمة « ولا تتمنوا » هى نهى عن أن تتمنى ما فضل الله به بعضا على بعض ، ولذلك يقول : « واسألوا الله من فضله » . ومادمت تسأل الله من فضله ، فهنا أمل أن يعطيك .

وقد يرى البعض هنا مشكلة فيتساءل : كيف ينهانا الله عن أن نتمنى ما فضل الله به بعضنا على بعض فقال : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » مع أن فضل الله من شأنه أن يفضل بعضنا على بعضٍ بدليل قوله:(ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات) فضلا على أننى أطمع فى أن أسأل الله ليعطينى ، لأنه ـ سبحانه ـ

ما أمرنا بالسؤال إلاّ ليعطينا .

ونقول : لا ، التمنى عادة أن تطلب شيئاً يستحيل أو لم تجر به العادة ، إنما السؤال والدعاء هو مجال أن تأتى إلى شيء تستطيع الحصول عليه ، فأوضح : لا تذهب إلى منطقة التمنى ، ولذلك ضربوا المثل للتمنى ببيت الشاعر :

ألا ليت الشباب يعود يوماً
فأخبره بما فعل المشيب

تمنّى الشاعر أن يعود الشباب يوماً فهل هذا يتأتى ؟ إنه لا يتأتى . أو أن يقول قائل : ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها ، هل يمكن أن يحدث ذلك ؟ لا . ولكن هذا القول يدل على أن هذا الشيء محبوب وإن كان لم تجر به العادة ، أو هو مستحيل ، إذن فالسؤال يجب أن يكون فى حدود الممكن بالنسبة لك . والحق يوضح : لا تنظروا إلى ما فضل الله به بعضكم على بعض . ومادام الله قد فضل بعضاً على بعض فليسأل الإنسان لا فى منطقة ما فضل الله غيره عليه ويطلبه لنفسه ويسلبه من سواه ، ولكن فى منطقة أن توفق فى إبراز ما فضلك الله به ؛ ولذلك نجد الحق فى آيات التفضيل يقول :

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِ ﴾

(من الآية ٧١ سورة النحل)

وما هو الرزق ؟ هل هو نقود فقط ؟ لا . بل الرزق هو كل ما ينتفع به ، فالحلم رزق ، والعلم رزق ، والشجاعة رزق ، كل هذا رزق ، وقوله الحق : « ما فضل الله به بعضكم على بعض » يجعلنا نتساءل : من هو المفضل ومن هو المفضل عليه ؟ لأنه قال : « بعضكم » . لم يبينها لنا ، إذن فبعض مفضل وبعض مفضل عليه .

وسؤال آخر : وأى بعض مفضل وأى بعض مفضل عليه ؟ إن كل إنسان هو فاضل فى شيء ومفضول عليه فى شيء آخر ، فإنسان يأخذ درجة الكمال فى ناحية ، وإنسان يفتقد أدنى درجة فى تلك الناحية ، لكنه يملك موهبة أخرى قد تكون كامنة

ومكتومة . وهذا يعنى التكامل فى المواهب ، وهذا التكامل هو أسنان الحركة فى المجتمع .

لننتبه إلى التروس ، نحن نجد الترس الزائد يدخل فى الترس الأقل ، فتدور الحركة ، لكن إذا وضعنا ترساً زائدا مقابل ترس زائد مثله فلن تحدث الحركة . إذن فلابد أن يكون متميزا فى شىء والآخر متميزًا في شيء آخر فيحدث التكامل بينهما، ومثل ذلك قلنا:الليل والنهار ، الليل يعيننى على حركة النهار ، وقلنا : إن السيف فى يد الفارس يضرب به ويقتل ، ولو لم يسنه خبير فى الحدادة ويشحذه ويصقله لما أدى السيف مهمته ، وقد لا يستطيع هذا الخبير فى صقل السيوف الذهاب للمعركة ، وقد يخاف أن يضرب بالسيف ، لكن له فضل مثل فضل المحارب بالسيف .

إن كل واحد له مهمة يؤديها ، والأقدار تعطى الناس مواهبهم المتكاملة وليست المتكررة المتعاندة ، ومادامت المواهب متكاملة فلا أحسد من تفوّق علىّ فى مجال ما ؛ لأننى أحتاج إليه ، وهو لا يحسدنى إن تفوقت عليه فى موهبة أو عمل لأنه يحتاج إلى ، إذن فأنا أريده أن يتفوق ، وهو يريدنى أن أتفوق ، وذلك مما يحبب الناس فى نعم ومواهب الناس ، فأنا أحب النعمة التى وهبها الله للآخر ، وهو يحب النعمة والموهبة التى عندى .

مثال ذلك عندما نجد رجلا موهوبا فى تفصيل الملابس ويحيك أجود الجلابيب فالكل يفرح به ، وهذا الرجل يحتاج إلى نجار موهوب ليصنع له باباً جيداً لدكانه ، ومن مصلحة الاثنين أن تكون كل نعمة عند واحد محمودة ، ولذلك سمانا الله « بعضا » و« بعضا » ويتكون الكل من بعض وبعض ، فأنت موهوب فى بعض الأمور ولا تؤدى كل الأمور أبداً ، ولكن بضميمة البعض الآخر نملك جميعاً مواهب بعضنا بعضا .

ويتابع الحق : « للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » فمهمة النجاح للرجل أو المرأة هو أن يكون كل منهما صالحاً ومؤديا للمهمة التى خُلق من أجلها ، بعد ذلك يكون حساب الثواب والعقاب وكل واحد على قدر تكليفه .

فالثواب والعقاب يأتى على مقدار ما يقوم كل مخلوق مما كلف به .

والمثال على اختلاف مهمة الرجل عن مهمة المرأة، يتجلى فى أننا نجد الرجل عندما تغضب امرأته أو تمرض ، ويكون عنده ولد رضيع ، فهل يستطيع هو أن يرضع الطفل ؟ طبعاً لا ، لأن لكل واحد مهمة ؛ فالعاقل هو من يحترم قدر الله فى خلقه ، ويحترم مواهب الله حين أعطاها ، وهو يسأل الله من فضله ، أى مما فضله به ليعطى له البركة فى مقامه . وحين يقول الحق : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » نلحظ أن هذه تساوى تلك تماماً .

« واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليما » ومن واسع علمه سبحانه أنه وزع المواهب فى خلقه حتى يتكامل المجتمع ولا يتكرر ؛ لأن تكرار المجتمع هو الذى يولد الشقاق ، أما تكامله فيولد الوفاق ، وسبب نزول الآية « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » أن النساء قلن : إننا لم يكتب علينا الجهاد وأعطانا ربنا نصف الرجل من الميراث ، وقد أوضح الحق من قبل للمرأة أنها أخذت نصف الرجل لأنها محسوبة على غيرها ولن تصرف وتنفق من دخلها على نفسها ، بل سيصرف الرجل وينفق عليها، والمسألة بذلك تكون عادلة. وكذلك قال الرجال: مادام الله قد فضلنا فى الميراث، وأعطانا ضعف نصيب المرأة فلعله يفضلنا فى الآخرة ويعطينا ضعف ثوابها ، فيصنع الرجل العمل الواحد ويريد الضِّعف !.

وانظر لذكاء المرأة ، حينما قالت : مادام ربنا أعطانا نصف ميراثكم فلماذا لا يعطينا نصف العقوبة إذن ؟ فأوضح لهم الله : اهدأوا « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » أى أن على كل واحد أن يرضى بما قسمه الله له .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ

وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

وساعة ترى لفظة « لكل » وتجدها منونة ، فاعرف أن هناك حاجة مقدرة ، وأصلها « لكل إنسان » ، وحذف الاسم وجاء بدلاً منه التنوين ، مثل قوله :

﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

ونجد التنوين فى « حينئذٍ » أى حين بلغت الروح الحلقوم ، فحذف حين بلغت الروح الحلقوم وعوض عنها التنوين فى « حينئذٍ » إذن فالتنوين جاء بدلاً من المحذوف .

وقول الحق : « ولكل جعلنا موالى » ، و« الموالى » جمع « مَوْلى » . وقبل أن تنزل آيات الميراث ، آخى النبى بين الأنصار والمهاجرين ، فكانوا يتوارثون بهذه المؤاخاة ، وكان هناك شيء اسمه « مولى المناصرة » وهو أن يستريح اثنان لبعضهما ويقول كل منهما للآخر : أنا أخوك وأنت أخى ، حربى حربك ، وسلمى سلمك ، ودمى دمك ، وترث منى وأرث منك ، وتعقل عنى وأعقل عنك ، أى أن فعلتُ جناية تدفع عنى ، وإن فعلتَ أنت جناية أدفع عنك . مؤاخاة .

هؤلاء كان لهم نصيب فى مال المتوفى ، فالحق يبينّ : لكل إنسان من الرجال والنساء جعلنا ورثة يرثون مما ترك الوالدان ، والأقربون . . أى لهم نصيب من ذلك ولأولياء المناصرة بعض من الميراث كذلك. فإياكم أن تأتوا أنتم وتقولوا: لا، لابد أن تعطوهم نصيبهم الذى كان مشروطاً لهم وهو السدس .

لكن أظل ذلك الحكم ؟ لا. لقد نسخ وأنزل الله قوله :

﴿ وَأُولُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة الأنفال)

فمادام الله قد قال : « ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون » . أى ولكل إنسان من الموالى شيء من آثار ما ترك الوالدان والأقربون . فإياكم أن تقولوا : هم ذهبوا فلا نعطيهم شيئا ، لا.ما كانوا متفقين فيه وعقدوا أيمانهم عليه آتوهم نصيبهم مصداقاً لقوله الحق : « فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيدا » فالله شهيد على هذه . وشهيد على أنكم تنفذون أو لا تنفذون .

وبعد ذلك جاء ليتكلم فى قضية متصلة بقول الحق سبحانه : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » فقال :

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ
ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ
فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا
حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ
وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ
أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ
عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴿٣٤﴾ ﴾

«الرجال قوامون على النساء»، أول ما نلتفت إليه أن بعضهم لم يفسروا الآية إلاّ على الرجل وزوجته على الرغم من أنّ الآية تكلمت عن مطلق رجال ومطلق نساء ، فليست الآية مقصورة على الرجل وزوجه ، فالأب قوام على البنات ،والأخ على أخواته . ولنفهم أولاً « الرجال قوامون » وماذا تعنى ؟ ونظر أهذه تعطى النساء التفوق والمر كز

أم تعطيهن التعب . والحق سبحانه وتعالى يطلب منا أن نحترم قضية كونية ، فهو الخالق الذى أحسن كل شيء خلقه وأوضح القضية الإيمانية « الرجال قوامون على النساء » والذى يخالف فيها عليه أن يوضح - إن وجد - ما يؤدى إلى المخالفة ، والمرأة التى تخاف من هذه الآية ،نجد أنها لو لم ترزق بولد ذكر لغضبت ، وإذا سألناها : لماذاإذن ؟ تقول : أريد ابنًا ليحمينا . كيف وأنت تعارضين فى هذا الأمر ؟.

ولنفهم ما معنى « قوّام » ، القوّام هو المبالغ فى القيام . وجاء الحق هنا بالقيام الذى فيه تعب ، وعندما تقول : فلان يقوم على القوم ؛ أى لا يرتاح أبدا . إذن فلماذا تأخذ « قوامون على النساء » على أنه كتم أنفاس ؟ لماذا لا تأخذها على أنه سعى فى مصالحهن ؟ فالرجل مكلف بمهمة القيام على النساء ، أى أن يقوم بأداء ما يصلح الأمر . ونجد أن الحق جاء بكلمة « الرجال » على عمومها ، وكلمة « النساء » على عمومها ، وشيء واحد تكلم فيه بعد ذلك فى قوله : « بما فضل الله بعضهم على بعض » فما وجه التفضيل ؟.

إن وجه التفضيل أن الرجل له الكدح وله الضرب فى الأرض وله السعى على المعاش ، وذلك حتى يكفل للمرأة سبل الحياة اللائقة عندما يقوم برعايتها . وفى قصة آدم عليه السلام لنا المثل ، حين حذر الحق سبحانه آدم وزوجته من الشيطان ، إبليس الذى دُعى إلى السجود مع الملائكة لآدم فأبى ، وبذلك عرفنا العداوة المسبقة من إبليس لآدم ، وحيثيتها :

﴿ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الاسراء)

وأوضح الحق لآدم : إذا هبطت إلى الأرض فاذكر هذه العداوة . وأعلم أنه لن يتركك ، وسيظل يغويك ويغريك ؛ لأنه لا يريد أن يكون عاصياً بمفرده ، بل يريد أن يضم إليه آخرين من الجنس الذى أبى أن يسجد هو لأبيهم آدم يريد أن يغويهم ، كما حاول إغواء آدم :

﴿ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾

(من الآية ١١٧ سورة طه)

وهل قال الحق بعدها : فتشقيا أو فتشقى ؟ قال سبحانه :

﴿ فَتَشْقَىٰ ﴾

(من الآية ١١٧ سورة طه)

فساعة جاء الشقاء فى الأرض والكفاح ستر المرأة وكان الخطاب للرجل . وهذا يدل على أن القوامة تحتاج إلى تعب ، وإلى جهد ، وإلى سعى ، وهذه المهمة تكون للرجل .

ونلحظ أنه ساعة التفضيل قال : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض » لقد جاء بـ « بعضهم » لأنه ساعة فضل الرجل لأنه قوّام فضل المرأة أيضا لشىء آخر وهو كونها السكن حين يستريح عندها الرجل وتقوم بمهمتها .

ثم تأتى حيثية القوامة : « وبما أنفقوا من أموالهم » . والمال يأتى نتيجة الحركة ونتيجة التعب ، فالذى يتعب نقول له : أنت قوّام ، إذن فالمرأة يجب أن تفرح بذلك ؛ لأنه سبحانه أعطى المشقة وأعطى التعب للجنس المؤهل لذلك . ولكن مهمتها وإن كانت مهمة عظيمة إلا أنها تتناسب والخصلة المطلوبة أولاً فيها : الرقة والحنان والعطف والوداعة . فلم يأت بمثل هذا ناحية الرجل ، لأن الكسب لا يريد هذه الامور ، بل يحتاج إلى القوة والعزم والشدة ، فقول الله: « قوامون » يعنى مبالغين فى القيام على أمور النساء .

ويوضح للنساء : لا تذكرن فقط أنها حكاية زوج وزوجة . قدرن أن القيام يكون على أمر البنات والأخوات والأمهات . فلا يصح أن تأخذ « قوام » على أنها السيطرة ؛ لأن مهمة القيام جاءت للرجل بمشقة ، وهى مهمة صعبة عليه أن يبالغ فى القيام على أمر من يتولى شئونهن .

« وبما أنفقوا من أموالهم » فإذا كان الزواج متعة للأنثى وللذكر . والاثنان يستمتعان ويريدان استبقاء النوع فى الذرية ، فما دامت المتعة مشتركة وطلب الذرية أيضا مشتركا فالتبعات التى تترتب على ذلك لم تقع على كل منهما ، ولكنها جاءت على

الرجل فقط . . . صداقاً ونفقة حتى ولو كانت المرأة غنية لا يفرض عليها الشرع حتى أن تقرض زوجها .

إذن فقوامة الرجال جاءت للنساء براحة ومنعت عنهن المتاعب . فلماذا تحزن المرأة منها ؟ فـ « الرجال قوامون على النساء » أى قائمون إقامة دائمة ، لأنه لا يقال قوّام لمطلق قائم ، فالقائم يؤدى مهمة لمرة واحدة ، لكن « قوّام » تعنى أنه مستمر فى القوامة .

« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » وما دمنا نكدح ونتعب للمرأة فلابد أن تكون للمرأة مهمة توازى ذلك وهى أن تكون سكناً له ، وهذه فيها تفضيل أيضاً .

لقد قدم الحق سبحانه وتعالى فى صدر الآية مقدمة بحكم يجب أن يُلتزم به؛لأنه حكم الخالق الذى أحسن كل شىء خلقه ، فأوضح القضية الإيمانية : « الرجال قوامون على النساء » ثم جاء بالحيثيات فقال : « بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » ويتابع الحق : « فالصالحات قانتات حافظات للغيب » والمرأة الصالحة هى المرأة التى استقامت على المنهج الذى وضعه لها من خلقها فى نوعها ، فمادامت هى صالحة تكون قانتة ، والقنوت هو دوام الطاعة لله ، ومنه قنوت الفجر الذى نقنته ، وندعو ونقف مدة أطول فى الصلاة التى فيها قنوت .

والمرأة القانتة خاضعة لله ، إذن فحين تكون خاضعة لله تلتزم منهج الله وأمره فيما حكم به من أن الرجال قوامون على النساء ، « فالصالحات قانتات حافظات للغيب » وحافظات للغيب تدل على سلامة العفة . فالمرأة حين يغيب عنها الراعى لها والحامى لعرضها كالأب بالنسبة للبنت والابن بالنسبة للأم ، والزوج بالنسبة للزوجة ، فكل امرأة فى ولاية أحد لا بد أن تحفظ غيبته ؛ ولذلك فالرسول صلى الله عليه وسلم حينما حدد المرأة الصالحة قال فى حديث عن الدنيا :

« الدنيا كلها متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة »[1]

(١) رواه أحمد ومسلم والنسائى عن ابن عمرو .

لقد وضع صلى الله عليه وسلم قانوناً للمرأة الصالحة يقول فيه :

« خير النساء التى تسرّه إذا نظر وتطيعه إذا أمر ولا تخالفه فى نفسها ولا مالها بما يكره »[1] .

وأى شيء يحتاج الرجل إليه أحسن من ذلك . وكلمة « إن نظرت إليها سرّتك » إياك أن توجهها ناحية الجمال فقط ، جمال المبنى ، لا ، فساعة تراها اجمع كل صفات الخير فيها ولا تأخذ صفة وتترك صفة ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم حذرنا من أن نأخذ صفة فى المرأة ونترك صفة أخرى ، بل لابد أن نأخذها فى مجموع صفاتها . فقال :

« تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك »[2] .

المطلوب ألا تنظر إلى زاوية واحدة فى الجمال ، بل انظر إلى كل الزوايا ، فلو نظرت إلى الزاوية التى تشغل الناس ، الزاوية الجمالية ، لوجدتها أقل الزوايا بالنسبة إلى تكوين المرأة ؛ لأن عمر هذه المسألة « شهر عسل » - كما يقولون - وتنتهى ، ثم بعد ذلك تبدو المقومات الأخرى . فإن دخلت على مقوم واحد وهى أن تكون جميلة فأنت تخدع نفسك ، وتظن أنك تريدها سيدة صالون ! ونقول لك : هذه الصفة أمدها بسيط فى عمر الزمن ، لكن ما يبقى لك هو أن تكون أمينة ، أن تكون مخلصة ، أن تكون مدبرة ؛ ولذلك فالفشل ينشأ فى الأسرة من أن الرجال يدخلون على الزواج بمقياس واحد هو مقياس جمال البنية ، وهذا المقياس الواحد عمره قصير، يذهب بعد فترة وتهدأ شِرّته . وبعد ذلك تستيقظ عيون الرجل لتتطلع إلى نواحى الجمال الأخرى ، فلا يجدها . فيحدث الفشل ؛ لذلك لابد أن تأخذ مجموعة الزوايا كلها . إياك أن تأخذ زاوية واحدة ، وخير الزوايا أن يكون لها دين . وكذلك المقياس بالنسبة لقبول المرأة للزوج ، أيضاً خير الزوايا أن يكون له دين ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

(١) رواه أحمد والنسائى والحاكم .

(٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه .

« إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه إن لا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض »[١] .

وعندما استشار رجل سيدنا الحسن بن على ـ رضى الله عنهما ـ قال : زَوّجها من ذى الدين ، إن أحبها أكرمها ، وإن كرهها لم يظلمها .

إذن فالدين يرشدنا : لا بد أن ننظر إلى المسألة التى سيكون لها عمر طويل فى الحياة الممتدة ، وبعد ذلك إذا أرادت أن تكون ناجحة فعليها أن ترى إطار نوعيتها وتنبغ فيه ، ومن الممكن إن كان عندها وقت أن توسع دائرة مهمتها فى بيتها ، فإذا كان عندها أولاد فعليها أن تتعلم الحياكة وتقوم بتفصيل وحياكة ملابسها وملابس أولادها فتوفر النقود ، أو تتعلم التطريز كى لا تدفع أجرة ، أو تتعلم التمريض حتى إذا مرض ولدها استطاعت أن تمرضه وترعاه ، أن تتعلم كى تغنى عن مدرس خصوصى يأخذ نقوداً من دخل الأسرة ، وإن بقى عندها وقت فلتتعلم السباكة لتوفر أجرة السباك إذا فسد صنبور ماء ، أو تتعلم إصلاح الكهرباء لتصلح مفتاح الإضاءة . وتستطيع المرأة أن تقوم بأى عمل وهى جالسة فى بيتها وتوفر دخلاً لتقابل به المهام التى لا تقدر أن تفعلها ، والمرأة تكون من « حافظات الغيب » ليس بارتجال من عندها أو باختيار ، بل بالمنهج الذى وضعه الله لحفظ الغيب ؟ . .

فما المنهج الذى وضعه الله لحفظ الغيب ؟ تحافظ على عرضها وعلى مال زوجها فى غيبته ، فتنظر المنافذ التى تأتى منها الفتنة وتمتنع عنها ، لا تخرج إلى الشوارع إلا لحاجة ماسة أو ضرورة كى لا ترى أحداً يفتنها أو يفتن بها ؛ لأن هذه هى مقدمات الحفظ ، ولا تذهب فى زحمة الحياة ، وبعد ذلك نقول لها: « حافظى على الغيب » بل عليها أن تنظر ما بيّنه الله فى ذلك . فإن اضطررت أن تخرجى فلتغضى البصر ؛ ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾

(من الآية ٣١ سورة النور)

---

(١) رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم عن أبى هريرة .

فالمرأة إن لم تغض النظر يحدث التفات عاطفى ؛ لأن كل شعور فى الإنسان له ثلاث مراحل : مرحلة أن يدرك ، ومرحلة أن يجد فى نفسه ، ومرحلة أن ينزع ، أى يحول الأمر إلى سلوك ، ونضرب دائماً المثل بالوردة . وأنت تسير ترى وردة فى بستان وبمجرد رؤيتك لها فهذا إدراك ، وإذا أعجبتك الوردة وعشقتها وأحببتها فهذا اسمه وجدان . وإذا اتجهت لتقطفها فهذه عملية نزوعية ، فكم مرحلة ؟ ثلاث مراحل : إدراك ، فوجدان . فنزوع .

ومتى يتدخل الشرع ؟ الشرع يتدخل فى عملية النزوع دائماً . يقول لك : أنت نظرت الوردة ولم نعترض على ذلك ، أحببتها وأعجبتك فلم نقل لك شيئاً ، لكن ساعة جئت لتمدّ يدك لتأخذها قلنا لك : لا ، الوردة ليست لك .

إذن فأنت حرّ فى أن تدرك ، وحرّ فى أن تجد فى نفسك ، إنما ساعة تنزع نقول لك : لا ، هى ليست لك ، وإن أعجبتك فازرع لك وردة فى البيت ، أو استأذن صاحبها مثلاً .

إذن فالتشريع يتدخل فى منطقة النزوع ، إلا فى أمر المرأة فالتشريع يتدخل من أول الإدراك ؛ لأن الذى خلقنا علم أننا إن أدركنا جمالاً ، نظرنا له ، وستتولد عندنا مواجيد بالنسبة للأشياء التى نراها ونشتهيها ، وساعة يوجد إدراك واشتهاء ، لا يمكن أن ينفصل هذا عن النزوع ؛ لأنك ـ كرجل ـ مركب تركيباً كيميائيا بحيث إذ أدركت جمالاً ثم حدث لك وجدان واشتهاء ، فالاشتهاء لا يهدأ إلا بنزوع ، فيبيّن لك الشرع : أنا رحمتك من أول الأمر ، وتدخلت من أول المسألة . وكل شيء أتدخل فيه عند النزوع إلا المرأة فقد تدخلت فيها من أول الإدراك ؛ لذلك أمر الحق الرجل أن يغض البصر ، وكذلك أمر المرأة .

لماذا ؟ لأنك إن أدركت فستجد ، وإن وجدت فستحاول أن تنزع ونزوعك سيكون عربدة فى أعراض الناس ، وإن لم تنزع فسيبقى عندك كبت ؛ لذلك حسم الحق المسألة من أولها وقال :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ

﴿ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾

(الآية ٣٠ وجزء من الآية ٣١ سورة النور)

فامنعوا المسألة من أول مراحلها لماذا ؟ لأنني عندما أرى وردة ، ثم قالوا لي : هي ليست لك فلا تقطفها ، فلا يحدث عندي ارتباك في مادتي ، لكن عندما يرى الرجل امرأة جميلة وتدخل في وجدانه فسيحدث عنده النزوع ؛ لأن له أجهزة مخصوصة تنفعل لهذا الجمال ، ولذلك يوضح لك الحق : أنا خالقك وسأتدخل في المسألة من أول الأمر ، فقوله : « بما حفظ الله » أي بالمنهج الذي وضعه الله للحفظ : ألا أعرض نفسي إلى إدراك ، فينشأ عنه وجدان ، وبعد ذلك أفكر في النزوع ، . فإن نزعت أفسدت ، وإن لم تنزع تعقدت ، فيأتي شرٌّ من ذلك ، هذا معنى « بما حفظ الله » ، يعني انظروا إلى المنهج الذي وضعه الله لأن تحفظ المرأة غيبة زوجها ، وهي تحفظه ليس بمنهج من عندها . بل بالمنهج الذي وضعه خالقها وخالقه .

وها هو ذا الحق سبحانه وتعالى حينما يربِّي في عبده حاسة اليقظة قال : « واللاتي تخافون نشوزهن » فالنشوز لم يحدث بل مخافة أن يحدث ، فاليقظة تقتضي الترقب من أول الأمر ، لا تترك المسألة حتى يحدث النشوز ، و« النشوز » من « نشز » أي ارتفع في المكان . ومنه « النشز » وهو المكان المرتفع ، ومادام الحق قد قال : « الرجال قوامون على النساء » فالمعنى هنا : مَن تريد أن تتعالى وتوضع في مكانة عالية ؟ ؛ ولذلك فالنشاز حتى في النغم هو : صوت خارج عن قواعد النغم فيقولون : هذه النغمة نشاز ، أي خرجت عن قاعدة النغمة التي سبقتها . وكذلك المرأة المفروض فيها أنها تكون متطامنة ، فإن شعرت أن في بالها أن تتعالى فإياك أن تتركها إلى أن تصعد إلى الربوة وترتفع . بل عليك التصرف من أول ما تشعر ببوادر النشوز فتمنعه ، ومعنى قوله : « واللاتي تخافون » يعني أن النشوز أمر متخوف منه ومتوقع ولم يحدث بعد .

وكيف يكون العلاج ؟ يقول الحق : « فعظوهن » أي ساعة تراها تنوى هذا فعظها ، والوعظ : النصح بالرقة والرفق ، قالوا في النصح بالرقة : أن تنتهز فرصة

انسجام المرأة معك ، وتنصحها فى الظرف المناسب لكى يكون الوعظ والإرشاد مقبولاً فلا تأت لإنسان وتعظه إلا وقلبه متعلق بك .

ولنفترض أن ابناً طلب من والده طلباً ، ولم يحضره الأب ، ثم جاءت الأم لتشكو للأب سلوك الابن ، فيحاول الأب إحضار الطلب الذى تمناه الابن ، ويقول له :

- تعال هنا يا بنى ، إن الله قد وفقنى أن أحضر لك ما طلبت .

وفى لحظة فرح الابن بالحصول على ما تمنى ، يقول له الأب : لو تذكرت ما قالته لى أمك من سلوكك الردىء لما أحضرته لك .

ولو سب الأب ابنه فى هذه اللحظة فإن الابن يضحك .

لماذا ؟ لأن الأب أعطى الابن الدرس والعظة فى وقت ارتباط قلبه وعاطفته به . ولكن نحن نفعل غير ذلك . فالواحد يأتى للولد فى الوقت الذى يكون هناك نفور بينهما ، ويحاول أن يعظه ، لذلك لا تنفع الموعظة ، وإذا أردنا أن تنفع الموعظة يجب أن نغير من أنفسنا ، وأن ننتهز فرصة التصاق عواطف من نرغب فى وعظه فنأتى ونعطى العظة .

هكذا « فعظوهن » هذه معناها : برفق وبلطف ، ومن الرفق واللطف أن تختار وقت العظة ، وتعرف وقت العظة عندما يكون هناك انسجام ، فإن لم تنفع هذه العظة ورأيت الأمر داخلاً إلى ناحية الربوة ، والنشوز فانتبه . والمرأة عادةً تَدِل على الرجل بما تعرف فيه من إقباله عليها . وقد تصبر المرأة على الرجل أكثر من صبر الرجل عليها ؛ لأن تكوين الرجل له جهاز لا يهدأ إلا أن يفعل . لكن المرأة تستثار ببطء ، فعندما تنفعل أجهزة الرجل فهو لا يقدر أن يصبر ، لكن المرأة لا تنفعل ولا تستثار بسرعة ، فأنت ساعة ترى هذه الحكاية ، وهى تعرفك أنك رجل تحب نتائج العواطف والاسترسال ؛ فأعط لها درساً فى هذه الناحية ، اهجرها فى المضجع .

وانظر إلى الدقة ، لا تهجرها فى البيت ، لا تهجرها فى الحجرة ، بل تنام فى جانب وهى فى جانب آخر ، حتى لا تفضح ما بينكما من غضب ، اهجرها فى المضجع ؛ لأنك إن هجرتها وكل البيت علم أنك تنام فى حجرة مستقلة أو تركت البيت وهربت ، فأنت تثير فيها غريزة العناد ، لكن عندما تهجرها فى المضجع فذلك أمر يكون بينك وبينها فقط ، وسيأتيها ظرف عاطفى فتتغاضى ، وسيأتيك أنت أيضاً ظرف عاطفى فتتغاضى ، وقد يتمنى كل منكما أن يصالح الآخر .

إذن فقوله : « واهجروهن فى المضاجع » كأنك تقول لها : إن كنت سَتُدِلِّينَ بهذه فأنا أقدر على نفسى . ويتساءل بعضهم : وماذا يعنى بأن يهجرها فى المضاجع ؟. نقول : مادام المضجع واحداً فليعطها ظهره ويشرط ألا يفضح المسألة ، بل ينام على السرير وتُغلق الحجرة عليهما ولا يعرف أحد شيئاً ؛ لأن أى خلاف بين الرجل والمرأة إن ظل بينهما فهو ينتهى إلى أقرب وقت ، وساعة يخرج الرجل وعواطفه تلتهب قليلاً ، يرجع ويتلمسها ، وهى أيضاً تتلمسه . والذى يفسد البيوت أن عناصر من الخارج تتدخل ، وهذه العناصر تورث فى المرأة عناداً وفى الرجل عناداً ؛ لذلك لا يصح أن يفضح الرجل ما بينه وبينه المرأة عند الأم والأب والأخ ، ولنجعل الخلاف دائماً محصوراً بين الرجل والمرأة فقط . فهناك أمر بينهما سيلجئهما إلى أن يتسامحا معاً .

« فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن » وقالوا : إن الضرب بشرط ألا يسيل دماً ولا يكسر عظماً . . أى يكون ضرباً خفيفاً يدل على عدم الرضا ؛ ولذلك فبعض العلماء قالوا : يضربها بالسواك .

وعلمنا ربنا هذا الأمر فى قصة سيدنا أيوب عندما حلف أن يضرب امرأته مائة جلدة ، قال له ربنا :

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة ص)

والضغث هو الحزمة من الحشيش يكون فيها مائة عود ، ويضربها ضربة واحدة فكأنه ضربها مائة ضربة وانتهت . فالمرأة عندما تجد الضرب مشوباً بحنان الضارب

فهى تطيع من نفسها ، وعلى كل حال فإياكم أن تفهموا أن الذى خلقنا يشرع حكماً تأباه العواطف ، إنما يأباه كبرياء العواطف ، فالذى شرع وقال هذا لابد أن يكون هكذا .

« واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن » أى ضرباً غير مبرح ، ومعنى : غير مبرح أى ألا يسيل دماً أو يكسر عظماً ويتابع الحق : « فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » .

فالمسألة ليست استذلالاً . بل إصلاحا وتقويما ، وأنت لك الظاهر من أمرها ، إياك أن تقول : إنها تطيعنى لكن قلبها ليس معى ؛ وتدخل فى دوامة الغيب ، نقول لك : ليس لك شأن لأن المحكوم عليه فى كل التصرفات هو ظاهرالأحداث . أما باطن الأحداث فليس لك به شأن مادام الحق قال : « أطعنكم » ؛ فظاهر الحدث إذن أن المسألة انتهت ولا نشوز تخافه ، وأنت إن بغيت عليها سبيلاً بعد أن أطاعتك ، كنت قوياً عليها فيجب أن تنتبه إلى أن الذى أحلها لك بكلمة هو أقوى عليك منك عليها وهذا تهديد من الله .

ومعنى التهديد من الله لنا أنه أوضح : هذه صنعتى ، وأنا الذى جعلتك تأخذها بكلمتى « زوجنى .. زوجتك » .. ومادمت قد ملكتها بكلمة منى فلا تتعال عليها ؛ لأننى كما حميت حقك أحمى حقها . فلا أحد منكما أولى بى من الآخر ، لأنكما صنعتى وأنا أريد أن تستقر الأمور ، وبعد هذا الخطاب للأزواج يأتى خطاب جديد فى قول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ٣٥ ﴾